الفصل الأول

الإستشراق – المفهوم والنشأة

المبحث الأول: {التجذير المفاهيمي للإستشراق}

المبحث الثاني: {النشأة والدوافع}

المبحث الأول

التجذير المفاهيمي للإستشراق

الإستشراق لغة واصطلاحاً

ظهر مصطلح "الإستشراق" في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، و هو حديث الإستعمال يتصل أصله بـ "الشرق"(١)، ويعني لغةً "طلوع الشمس من الشرق"(٢)، ومنها الفعل "شرّق" أي اتجه نحو الشرق(٣).

والجدير ذكره في هذا التجذير اللغوي أن المصدر إستشراقاً "يعني طلب علوم أهل الشرق"، وهي إشارة صريحة إلى من كان يبغي حضارة الشرق، "وتقال لمن يُعنى بذلك من علماء الفرنجة"(٤).

وفي اللغة الإنكليزية، إستشراق Orientalism مشتقة من كلمة Orient إلى الشرق، "وتعني دراسة ثقافة الشرق".

وفي قاموس وبستر Webester's، اسم الفاعل Orientalist أي مستشرق(٥) هو "المعنى بمعرفة اللغات الشرقية"(٦).

وللشرق معانٍ وتحديدات جغرافية متعددة، فالبريطانيون بالأخص يعنون بالشرق تخصيصاً الشرق الأوسط Middle East.

وجاء في دائرة المعارف الشعبية الأميركية The American People's Encyclopedia أن كلمة "Orient" هي المنطقة التي تتضمن بلدان آسيا حصراً و هي مشتقة من كلمة "Oriens" اللاتينية التي تعني Sun rising أي طلوع الشمس.

وشاعت الكلمة خلال عهد الإمبراطورية الرومانية، فكانت تعني مناطق شرق وجنوب شرق البحر المتوسط كافة، أي المنطقة التي تشرق عندها الشمس(٧)، و هو

---

(١) البستاني، فؤاد أفرام، دائرة المعارف [بيروت، ١٩٧٧] مجلد ١٢، ص١١.

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، (ت٧١١هـ، ١٣١١م)، لسان العرب [طبعة مصورة عن طبعة يولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة] جـ١٢، ص٣٩.

(٣) وجدي محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين [ط٣، مطبعة دائرة المعارف، بيروت، ١٩٧١] مجلد ٥، ص٣٧٩.

(٤) رضا الشيخ أحمد، معجم متن اللغة [دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩] مجلد ٣، ص٣١٠.

(5)Webster's, New Twentieth Edition Century, dictionary p-1261.

(6)University press: The Compact Edition of The Oxford English Dictionary, (New York-1971); vol. – 1 ;p-2009.

(7) The American Peoples Encyclopedia: New-York; Vol.-19;P-903

مفهوم ظل شائعاً في التحديد الجغرافي الحالي الذي قصد بالشرق حوض البحر المتوسط.

والتعبير باللغة الفرنسية "Orientalisme" لا تختلف كثيراً عما ذُكر آنفا، فهو العلم المعني بأمور الشرق وتراثه، و"Orientalist" تعني مستشرق و"Oriental" تعني شرقي[١].

ظهر أول ذكر لمصطلح الإستشراق (Orientalisime) في قاموس أوكسفورد عام (١٧٧٩م)، بينما كان أول استعمال له في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام (١٨٣٩م). ويشير استعماله في الوقت الراهن إلى المفاهيم المتعلقة بدراسات الشرق من الناحية الدينية واللغوية والعلمية والأدبية والفنية[٢].

وقد تباينت الآراء حول مفهوم الإستشراق، ويرجع ذلك إلى اختلاف المنطلق والتوجه جغرافياً وسياسياً.

فمنهم من يرى في الإستشراق علماً يدّرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم وأديانهم في ماضيها وحاضرها[٣]، وهو رأي جامع وشامل.

ومنهم من قال بأن الإستشراق يعني الدراسة المتقصية والمتمعنة لمختلف الأغراض التي قام بها الغربيون، رغبة منهم في استيعاب الشرق منطقة وتاريخاً، وتفهمه والتعرف إلى كنوزه الحضارية وعاداته وتقاليده ودياناته وكل شيء عن حياته[٤]، وهذا التعريف كما هو واضح يفيد بأن الإستشراق مدفوع بهدف وفلسفة.

وفي تعريف آخر، يُفهم الإستشراق على أنه معرفة للشرق ترسخت وانتظمت في نسق له مقدمات ونتائج، ويعمل بتقنيات ومناهج خاصة[٥]، حيث يضيف لما سبقه التنظيم والتخطيط.

إن العوامل التي أدت إلى ظهور مصطلح الإستشراق أحاطته بالغموض والتعميم، لأن الشرق هو تحديد أطلقته أوروبا على كل الأراضي التي كانت تقع وراء حدودها شرقاً، وربما يصل هذا التحديد إلى اليابان، إلا أن هذا الفهم للشرق أخذ

---

(1) Le nouveau Petit Robert, Dictionnaire De La Langue Francaise. Nouvelle Edition. Remaniee Et Amplifiee Sous La Direction De Josette Rey-De Bove et Alain Rey, Paris, Deco Robert, 1993, P-1548.

(٢) الدسوقي، محمد، (خصائص المرحلة الثالثة للإستشراق)، المنشور في مجلة الدعوة الإسلامية، العدد ٧٢ سنة ٢٠٠٠ ص٣-٤.

(٣) الساموك، سعدون محمود والعاني، عبدالقهار وداود، مناهج المستشرقين، [التعليم العالي في الموصل، ١٩٨٩] ص١٧.

(٤) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية [ط١، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١] ص١٧.

(٥) خميش، سالم، الإستشراق في أفق انسداده [ط١، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٩١] ص٧.

بالتبدل عبر القرون ليقتصر على الشرق الأوسط، بما يشمله من تاريخ وأديان وثقافات[١].

ومما تقدم نجد أن الإستشراق "دراسة عامة لأحوال الشرقيين شعباً والشرق منطقة من جهة لغاته القديمة ولهجاته الحديثة وتاريخه وأساطيره، طباعه وعاداته وتقاليده، أديانه ومعادنه وكل ما يتصل به من الناس والحيوان والذبات والمناخ والتربة ومكونات الشخصية وعوامل الفرقة"[٢].

تلتقي هذه الآراء والتعريفات للإستشراق رغم الفوارق الشكلية فيها من حيث المضمون المستند على التحديد الجغرافي للشرق الذي يختلف عن الغرب الأوروبي والأميركي.

من ناحية أخرى، وفي إطار تجاوز المفهوم الجغرافي للمصطلح، اختلط الإستشراق بشكل مرتبك أحياناً بمصطلح الإستعراب والمستعربين من غير المسلمين أو الذين لم يتكلموا اللغة العربية، وهؤلاء بحثوا في تراث الشرق لغة وأدباً وإن كانوا شرقيين "فشملهم هذا التعبير وغمرهم هذا المصطلح فصاروا مستشرقين"[٣]. وهذا يعني أن الإستشراق هو اشتغال كل من هو غير مسلم بعلوم المسلمين، بغض النظر عن جنسيته ووجهته الجغرافية وانتماءاته الدينية والثقافية والفكرية"[٤]. وعلى هذا الأساس، يعتبر الباحثون بتراث الإسلام من روسيا والصين واليابان مستشرقين بالرغم من كونهم من الشرق. كما يخرج من المصلطح الباحثون الغربيون (أوروبا وأميركا) الذين تخصصوا ودرسوا تراث روسيا واليابان والصين.

ومن الكتّاب والمهتمين بموضوع الإستشراق من عرّفه استناداً إلى اتجاهاته ونتائجه وتأثيراته على العرب والإسلام والشرق عموماً، حيث اعتبر إدوارد سعيد "الإستشراق صيغة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنيّة على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوروبية ورأى في الإستشراق لفظاً أكاديمياً صرفاً"[٥].

---

(١) السامرائي، قاسم، الإستشراق بين الموضوعية والإفتعالية [ط١، الفرزدق، الرياض، ١٩٨٣] ص١٠٧-١٠٨.

(٢) جبري عبدالمتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين. [ط١، دار التوفيق النموذجية، القاهرة، ١٩٨٨] ص٩.

(٣) الصغير، محمد حسين علي، المستشرقون والدراسات القرآنية [المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٣] ص١٢.

(٤) النملة، علي بن إبراهيم الحمد، الإستشراق والدراسات الإسلامية، مصادر الإستشراق والمستشرقين ومصدريتهم [ط١، التوبة، الرياض، ١٩٩٨] ص١٢٤.

(٥) سعيد أدوارد، الإستشراق، المعرفة، السطلة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو أديب، [ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١] ص٣٨.

وبمعنى آخر إنه "معرفة متكونة عن هذا العالم (الشرق) منطلقة منه ومسقطة عليه من الخارج من التكوينات والتراكمات المعرفية الأساسية عنه، بل والضرورية أحياناً للتعرف والتعمق في مفهوم الهوية العربية الإسلامية، ومراحل نموها وتطورها وحجم تفكيرها ومناهج هذا التفكير"(١).

وبناء على ما تقدم، نجد أن "الإستشراق هو ذاك الاهتمام الواسع بالشرق بكل ما يحتويه، والذي بدأ بالعرب والإسلام، وامتد ليشمل الشرق بكامله. والفكرة الشائعة بين الكثيرين ان الإستشراق هو أن يقدم المستشرقون إنتاجهم الفكري لأبناء الشرق، لكن ذلك هو جانب واحد من الإستشراق، وإن إقدام الغربيين على أن ينهلوا من منابع الحضارة الشرقية هو إستشراق أيضاً"(٢). وفعلاً، ألم تكن الأدوار معكوسة، حيث كان الفكر الغربي هو الطالب، والفكر العربي خلاقاً، كان هو المعطاء(٣).

وينسحب الإختلاف في تحديد مفهوم الإستشراق على تحديد من هو المستشرق الذي يقوم بفعل الإستشراق.

هناك من يعتبر المستشرق من "جمع بين الإنقطاع في درس بعض أذحاء الشرق وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت في تكوين الثقافة الإنسانية"(٤)، واعتقد أن هذا التعريف يضيق من المساحة التي ينضم إليها المستشرقون لأنه ينطوي على افتراض مواصفات في المستشرق قلما نجدها في من اطلعنا على كتاباتهم. وهذه المواصفات تستلزم منه أن يتصف بالعلمية والموضوعية والنزاهة والأمانة وغيرها، في حين يربط العديد من المهتمين موضوع الإستشراق بالاستعمار الحديث واعتبر كل مستشرق "عميلاً سرياً داخل الشرق في اختصاصه كتلميذ تُعده المؤسسة الإمبريالية بغية إحكام سيطرتها على الشرق من خلال دراسة موروثاته الثقافية"(٥). ومع ما لهذا التصور من أدلة في واقع الإستشراق الغربي، إلا أنه لا يمثل الحقيقة كاملة.

وعلى الرغم من أهمية النظر إلى النتائج في تحديد الموقف من المستشرق، إلا أنه ليس بالمقياس الحاسم لأن ثمة عوامل أخرى تؤثر إلى حد بعيد في ما يصل إليه

---

(١) ميكيل، أندريه (مات الإستشراق وحذار من الإستغراب) المنشور في مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد (٢٠، ٢١، ٢٢)، بيروت، ١٩٨٢، ص٧٩.

(٢) الخريطلي، علي حسن، المستشرقون والتاريخ الإسلامي [ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٨] ص٢٧.

(٣) اركون، محمد (التأمل الإبستمولوجي غائب عند العرب] المنشور في مجلة الفكر العربي المعاصر العدد (٢٠، ٢١، ٢٢)، ١٩٨٢، ص٨٢.

(٤) حمدان نذير، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين [ط٢، دار المنار، حدة، ١٩٨٦] ص٣١.

(٥) سعيد، خير الله رشك (منهجية التعالي على تراث الشعوب) المنشور في مجلة دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت، تموز، ١٩٩٠، العدد ٩، ص١٠٦.

المستشرق من نتائج، كمستوى التعمق في فهم اللغة، والعادات والتقاليد. ولذلك يكاد يتفق العديد من الكتاب والمفكرين على تصنيف المستشرقين وفق ثلاث فئات، أولها تلك التي تذهب إلى أولئك الذين لم يمتلكوا الثروة اللغوية فوقعوا في الخطأ، وثانيها أولئك الذين أثرت فيها مآرب السياسة والتعصب الديني فوجهوا الحقائق ونشروها بما يوافق أغراضهم، وثالثها على قلتها، أولئك الذين سعوا إلى البحث عن حضارة الشرق بدافع علمي وإخلاص للبحث والتحري والإنصاف[١].

الإستعراب مقابل الإستشراق

الإستعراب لغةً عباره مشتقة من استعرب أي "التحق بالعرب"[٢]، ويقال: "عرب الأعجمي إعراباً، وتَعرب تعريباً، واستعرب استعراباً وكل ذلك للاغتم دون الفصيح"[٣]. ومنها كلمة مستعربة أي "دخلاء ليسوا بخلص"[٤] أو "قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وحكوا هيأتهم، وليسوا بصرحاء فيهم"[٥].

وفي الفرنسية يقال Arabisation أي تعريب أو صيّره عربياً وArabisant وتعني المتخصص باللغة والحضارة العربية" [٦]. وأطلقت تسمية المستعربين "على المسيحيين في إسبانيا الذين عنوا بالبحث عن قضايا تفصيلية ودقيقة في معرفة أصل العرب"[٧]، حيث أصبحت هناك "كلمة عربية (المستعربة) تنطق باللاتينية (Mozarabe's – Musta'riba) تدل على سكان البلاد الذين بقوا على دين آبائهم تحت الحكم الإسلامي، لكنهم أصبحوا ناطقين بالعربية (Arabphone) أو يتكلمون اللغتين على الأقل"[٨].

---

(١) حمدان، نذير، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين، ص٣٦-٣٧.

(٢) البستاني، فؤاد افرام، دائرة المعارف، مجلد ١٢، ص٦٩، أنظر كذلك: لويس معلوم، المنجد في اللغة، ط٥، ص٥١٦.

(٣) الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس [تحقيق عبدالكريم الغرباوي، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٧] ج٣، ص٣٣٥.

(٤) رضا، الشيخ أحمد، معجم متن اللغة، مجلد ٣، ص٥٩، انظر كذلك: بطرس البستاني، محيط المحيط [مكتبة لبنان، بيروت] مجلد ٢، ص١٣١.

(٥) الزبيدي، الشيخ محمد مرتضى، تاج العروس، ج٣، ص٣٣٤.

(6) Format. Grand. Le Petit L'arousse, Paris, 1993, P-81.

(٧) رودنسون، مكسيم (الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام) المنشور في تراث الإسلام، تحقيق شاكر مصطفى سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٨، العدد ٨ ص٢٩.

(٨) غابرييلي، فرانشيسكو (الإسلام في عالم البحر المتوسط) المنشور في تراث الإسلام، العدد ٨ ص١٣٤.

هذه الظاهرة تعود إلى "القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ناجمة عن إقبال الشباب الأسباني على دراسة اللغة العربية وآدابها باندفاع، ما أثار حفيظة الأب الإسباني "الفارو" القرطبي، فراح يطلق شكواه المرّة من أولئك الأسبان الذين انصرفوا عن اللاتينية، لغتهم ولغة دينهم ليقبلوا طواعية على لغة العرب وآدابها"[١]. وكان منهم من اندمج في حياة المسلمين وقلّدهم في مختلف نواحي حياتهم اليومية، حتى أنهم أدخلوا ألفاظاً عربية في طقوسهم الكنسية، بحيث تميزت عن أبناء ملّتهم، وسميت بالطقوس المستعربة[٢].

و في الو قت الحا ضر، يطلق الأميركيون والبريطانيون مصطلح الإستعراب على المتخصصين بدراسة شؤون العرب تحديداً في لغتهم وتاريخهم وحضارتهم وهو قسم من الإستشراق[٣]، "والمستعربين هم الأجانب الذين اختصوا بالدراسات العربية في العصر الحديث"[٤].

وفي تحديد آخر للمستعربين لا يختلف كثيراً عن الرؤية السابقة، يقصد به من يدرس شؤون العرب والإسلام الحضارية، لغة وآداباً وتراثاً[٥].

والجدير بالذكر أنه من غير الصحيح القول بأن كل مستشرق هو مستعرب بينما العكس هو أكثر صواباً حيث يعتبر كل مستعرب مستشرقاً، أي لا يصح استعمال كل منهما مكان الآخر، فبينهما عام وخاص[٦].

التحديد الجغرافي للشرق

الشرق ويعني الجهة التي تشرق منها الشمس، ونظراً إلى كروية الأرض، فإن كل بقعة عليها لها شرق في الوقت نفسه الذي تكون هي فيه شرق لبقعة أخرى.

---

(١) الأوسي، حكمت علي (من أعلام الإستشراق الأسباني) المنشور في مجلة الإستشراق، ١٩٨٩، العدد٣، ص١٢٠.

(٢) الشكعة، مصطفى، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، [ط٢، مكتب التربية لدول الخليج العربي، ١٩٨٥] ص٣٢٢.

(٣) البستاني، فؤاد افرام، دائرة المعارف، مجلد ١٢ ص٦٩.

(٤) الأعسم، عبدالأمير، (الإستشراق من منظور عربي معاصر، المنشور في مجلة الإستشراق، العدد الأول، كانون ثاني، ١٩٨٧) ص٢٧.

(٥) ناجي، عبدالجبار، تطور الإستشراق في دراسة التراث العربي [دار الحرية، بغداد، ١٩٨١] ص٢٣. انظر كذلك: ميشال جحا، الدراسات العربية اللإسلامية في أوروبا، [ط١، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢] ص١٣.

(٦) ناجي عبدالجبار، المصدر نفسه، ص٢٧.

وعليه فإن المدلول الجغرافي لكلمة "شرق" يتغير تبعاً لاختلاف المكان[١]، واختلاف الجهة المحدد منها.

في العصور القديمة، كان "الشرق" يعني المناطق التي تقع في شرق البحر المتوسط، حيث كان هذا البحر يتوسط العالم القديم، وكانت الجهات تحدد بالنسبة إليه[٢]. ومع اتساع العالم جغرافياً وتطور الحياة وانتقال ثقل الأحداث العالمية إلى الشمال والغرب، بقي مصطلح الشرق دالاً على المناطق شرق البحر المتوسط[٣].

وفي أعقاب حروب التحرير التي وصلت إلى المحيط الأطلسي غرباً، تعرضت لفظة "الشرق" إلى تطور المعنى والمدلول، حيث أصبح المغرب شرقاً أيضاً، ولم يعد المغاربة كما كانوا، حيث الحدود الغربية للعالم حينئذ أو حين تغرب الشمس كما كانوا يعتقدون[٤].

ويرى بعضهم أن كلمة "الشرق" تحمل مدلولاً حضارياً جغرافياً، إذ اتسم الشرق بحضارة متميزة تختلف كثيراً عن ألوان الحضارات الأخرى، وإن من يرتحل بين الدول العربية والإسلامية ودول الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا، يجد تقارباً أفقياً بين المجموعات البشرية الكثيرة التي تعيش في هذه المناطق[٥].

ونظراً إلى طبيعة الصراعات عبر التاريخ، أصبح لكلمة "شرق" مدلول سياسي ارتبط بهذه الصراعات التي تعاقبت خلال مراحل تاريخ البشرية، وكان فيها الشرق يمثل مركز إحدى القوى الرئيسية المتصارعة، في حين يمثل الغرب القوى الأخرى[٦]: (الفرس-الروم)، (المسلمون-الروم)، (المسلمون-الصليبيون)، (العثمانيون-الأوروبيون) والتي أفضت إلى هذه الصلات القائمة بين الشرق ممثلاً بآسيا وأفريقيا، وبين الغرب في أوروبا وأميركا.

حاولت فرنسا إيجاد روابط سياسية وحضارية تستند إلى روابط جغرافية، حيث زعمت أن أهالي الأقاليم المطلة على البحر المتوسط ذات حضارة وثقافة من لون خاص وطابع متميز، واستهدفت من ذلك إحكام قبضتها على سوريا ولبنان والمغرب العربي[٧].

---

(١) الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص١٢، انظر كذلك: الزيادي، محمد فتح الله، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها [ط١، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ليبيا، ١٩٨٣] ص٥٥.

(٢) جحا، ميشال، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، ص١٥-١٦.

(٣) الصغير، محمد حسين علي، المستشرقون والدراسات القرآنية، ص١١.

(٤) الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص١٤.

(٥) المصدر نفسه، ص١٧.

(٦) الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المتستشرقين منها، ص٥٨.

(٧) الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص١٣.

وفي المصطلحات السياسية الحديثة، قُسم الشرق إلى ثلاثة أقسام جغرافية[١] هي:

- الشرق الأدنى Proche Orient; Near East ويطلق على المنطقة التي تشمل تركيا وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق ومصر وأصقاع جزيرة العرب الشمالية.
- الشرق الأقصى Extreme – Orient; Far – East، ويطلق على المنطقة التي تشمل كلاً من سيبيريا، الصين، اليابان، الهند الصينية، ملايو، وأندونيسيا.
- الشرق الأوسط Moyen – Orient; Middle – East ويطلق على العراق، أفغانستان، باكستان، الهند، وإيران.

وتخضع هذه المصطلحات لمتغيرات سياسية وجغرافية عدة، حاول الغرب تجذيرها كمفاهيم بديلة للقومية والدين من خلال العمل على ربط شعوب هذه المناطق تحت مسميات مختلفة لإبعادها عن الروابط الحقيقية التي تشكل أواصرها الوحدوية.

فقد ورد في دائرة معارف العالم، أن Orient هو تعبير يطلق على الأقطار والجزر الآسيوية، وفي بعض الأحيان يطلق هذا المصطلح على القسم الغربي من آسيا الذي يعرف بالشرق الأدنى[٢].

ومما تقدم، تتضح لنا صعوبة تحديد المدلول الجغرافي لكلمة "الشرق" المستخدمة في العملية الإستشراقية التي اتسعت بالتدريج وبخطى ثابتة، بحيث شمل اهتمام المستشرقين كل تلك المنطقة الجغرافية الواسعة التي تغطي نصف العالم، والتي حاولت أن تستوعب جميع أنواع المعارف والتخصصات ما دامت تعالج موضوعات ذات صلة بتلك المنطقة بصرف النظر عما يقوم بينها من اختلاف وتباين[٣].

---

(١) توتل، فرديناند، المنجد في العلوم [بيروت، ١٩٥٦] ص٢٨٨.

(2)The world book Encyclopedia; (U.S.A-1964); vol. – 14, p-647.

(٣) أبو زيد، أحمد، (الإستشراق والمستشرقون)، المنشور في مجلة عالم الفكر، تموز/ آب – ١٩٧٩، مجلد ١٠، العدد ٣، ص٢٦٣-٢٦٤.

المبحث الثاني

نشأة الإستشراق الأوروبي وتطوره

لعله من الصواب القول إن هناك اختلافاً بيّناً بين الذين كتبوا عن موضوع البداية الحقيقية للإستشراق. ويرجع الإختلاف من جهة إلى النظر للجهود والمساهمات الفردية الأولى التي تناولت النشاطات الثقافية والفكرية العربية والإسلامية، إذ منهم من اعتبرها البدايات الأولى للإستشراق، ومنهم من يعتبر بدء الدراسات المنظمة هو البداية الحقيقية.

ومن جهة أخرى، ينسحب الخلاف في الآراء حول مفهوم الإستشراق وتحديد هوية المستشرق، على تحديد تاريخ بدء الإستشراق.

لقد مر الإستشراق بمراحل تاريخية وخضع لتأثير عوامل دينية وسياسية وثقافية مختلفة، لذلك نجد صعوبة في محاولة إيجاد تاريخ محدد لبدء الإستشراق بما يقصد منه دراسة منظمة، وجهود مكثفة للدراسات الشرقية، لكن المتفق عليه عموماً هو أن الكتابة عن الشرق العربي - الإسلامي في أوروبا بدأت مع بداية تصادم العرب- المسلمين مع الفرنجة داخل الأراضي الأوروبية، عندما سارع رجال الدين المسيحيون في رد فعل إلى دراسة الإسلام لإبعاده عن شعوبهم[١].

ورغم ذلك لا مراء من التسليم بأن الجذور التاريخية للعلاقة بين الغرب والوطن العربي ترجع إلى قرون عديدة سابقة، منذ بدايات احتكاك اليونان بالفرس عبر الأراضي العربية، فتكشفت حينها ثروات الشرق.

المرحلة اللاحقة لهذا التلاقح والتصادم فرض نفسه عندما بدأت الدولة العربية - الإسلامية تحرر الأراضي العربية، حيث وقف المسلمون والنصارى موقف الخصومة السياسية التي تعزى أسبابها إلى جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبي[٢].

وهناك من يرجع بداية الإستشراق إلى القرن العاشر الميلادي، حيث ظهر الاهتمام بالعلوم العربية الإسلامية إذ قصد بعض الرهبان الأندلس إبان عظمتها ومجدها وتعلموا في مدارسها وترجموا بعض الكتب إلى لغاتهم وتتلمذوا على يد علماء مسلمين، اشتهر منهم الفرنسي جربرت دي أورلياك (Gerbert de Aurillac) الذي انتخب بابا لكنيسة روما (٩٩٩-١٠٠٣م) باسم سلفستر الثاني Silvester II الذي

---

(١) الجشعمي، عصمت جودي محمد، (دور المستشرقين في تخريب الثقافة والفكر العربي)، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٥٢، ١٩٧٥، ص٥٨.

(٢) هيكل، محمد حسين، حياة محمد [ط٥، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٢] ص٩.

أنشأ مدرستين عربيتين الأولى في إيطاليا وهي مقره الديني والثانية في ريمس (Reims) في فرنسا[١]، في حين كان الشباب الأسباني ومنذ القرن التاسع الميلادي يقبل على دراسة اللغة العربية وثقافتها وآدابها.

وإلى جانب ذلك، كانت هناك محاولات أخرى أكثر تنظيماً باتجاه تلقي العلم من العرب في الأندلس، واتخذت شكل البعثات الرسمية التي وفدت إلى الأندلس للدراسة في معاهدها وتلقي العلم[٢] وكان أولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا، والثانية إنكليزية وعلى رأسها الأميرة دوبان ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة ويلز، والثالثة في مقاطعات "سفوا" و"بافاريا" و"سكسونيا" والـ"راين" ووصل عدد الطلاب حوالي سبعمائة طالب وطالبة [٣] في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين.

ومنذ القرن الثاني عشر، بدأت تظهر عمليات الترجمة والنقل لمؤلفات يونانية قديمة ترجمها وفسرها علماء عرب، وبرز من هؤلاء الذين تعلموا العربية بشكل سمح لهم بفهم النصوص، المستعرب البريطاني أدلارد الباثي وميخائيل سكوت وبطرس الناسك وروبرت أوف جستر وهيرمان الدلماسي وجيرارد الكرموني[٤].

ولذلك اعتبر كل من رودي بارت[٥] وهو مستشرق ألماني ولويس ماسينيون وهو مستشرق فرنسي وغيرهم، أن القرن الثاني عشر هو بداية الإستشراق، حيث

---

(١) العقيقي، نجيب، المستشرقون [ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤] ج١، ص١٣٠.

(٢) فانتاجو، مالكس، المعجزة العربية، ترجمها إلى العربية رمضان لاوند، [ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤] ص٦٥.

(٣) الزيادي، محمد فتح الله، ظاهرة إنتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، ص٦٤.

(٤) ناجي، عبدالجبار، الإستشراق وسيلة لنقل وترجمات بيت الحكمة العباسي إلى الغرب، بحث منشور في الذكرى المئوية الثانية عشر لتأسيس بيت الحكمة، سنة ٢٠٠٠.

(٥) بارت، رودي، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر [دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧]، ص٩.

* ظهرت أول ترجمة لاتينية للقرآن سنة (١١٤٣م) ونسبت إلى بطرس المبجل (Peter The Venerable) رئيس دير كلوني، الذي ولد سنة (١٠٩٢ أو ١٠٩٤م)، ومات سنة (١١٥٧م). وكانت رحلة أقلته إلى أسبانيا لزيارة الأديرة التابعة له سنة (١١٤١م) وكانت فرصة له أطلع من خلالها على الحوار الدائر بين المسيحية والإسلام والمعارك الدائرة بين المسلمين والأسبان فولدت على أثرها لديه قناعة بأنه لا سبيل للرد كما يدعي على (هرطقة محمد) إلا بقوة الكلمة. وعليه وضع خطة لترجمة القرآن إلى اللاتينية بالاستعانة مع مجموعة من الرهبان المترجمين (روبرتوس أو روبرت أوف كيتون الإنكليزي Rober of Ketton وهيرمان الدلماسي الألماني).
لمزيد من الإطلاع انظر: رودنسون، الصورة الغربية، والدراسات العربية الإسلامية، ص٣٧.

تمت فيه أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم*، كما ظهر فيه أول قاموس لاتيني عربي[١]. أما ترجمة القرآن فقد حفلت بأخطاء جسيمة في المعنى والمبنى. ولم يكن الراهب روبرتوس أميناً إذ أغفل العديد من المفردات، حيث كان المكلف بترجمة القرآن في حين قام الآخر (هيرمان) بترجمة النبذ المختصرة[٢].

ويرى بعض الباحثين أن تاريخ الإستشراق يرجع إلى الحروب الصليبية التي أنطلقت أولى حملاتها في أواخر صيف (١٠٩٦)[٣] حين بدأ الاحتكاك الديني والسياسي بين الإسلام والمسيحية في فلسطين وبلاد الشام، والهزيمة التي تلقتها أوروبا على يد العرب المسلمين، وما تركته من آثار عميقة في نفوسهم دفعتهم للتفكير في سر قوة وصلابة إيمان المسلمين، ما دفعهم للبحث والدراسة في سبيل الكشف عن وسيلة أخرى غير وسيلة الحروب والسلاح، للنيل من العرب والإسلام، فنشأ الاهتمام من قبل الغرب بالشرق والبحث في معظم أموره[٤].

وكان للتعبئة التي نهضت بها البابوية ورجال الدين النصارى، بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة، تأثير في تأجيج الحقد والكراهية في نفوس المسيحيين الغربيين ضد المسلمين، ما ولد شعوراً طاغياً بالبغض السياسي والديني نحو العرب والمسلمين، وتميز هذا الشعور بالتعصب الشديد[٥]، وبقي "موقف الغرب المسيحي في العصر الوسيط من الإسلام موقف الدفع والمشاحنة فحسب"[٦].

لذلك كان جل همهم أن يبحثوا في كيفية النيل من العرب والإسلام في دينهم، وحضارتهم، وتاريخهم، ولعل الأوسع شهرة في هذا المجال المبشر رايموندوس لولوس[٧] من القرن الثالث عشر والذي أراد "أن يقنع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحي"، فبذل جهوداً كبيرة لتأسيس كراسي لتدريس اللغة العربية[٨]، بغرض تعليم الرهبان كيفية التبشير ضد الإسلام. هذه الجهود

---

(١) فوك، يوهان، تاريخ حركة الإستشراق تعريب عمر لطفي العالم [ط١، دار كتيبة، دمشق-بيروت، ١٩٩٦]، ص١٥. وقد ذكر فوك أيضاً أن المعجم العربي اللاتيني غير معروف صاحبه ولا مكان وتاريخ صدوره وإن كان فحواه يدل على أنه ألف في أسبانيا المسيحية، ص١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧.

(٣) قاسم، قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية [مطابع السياسة، الكويت، ١٩٩٠] ص١١٣.

(٤) عليان، محمد عبدالفتاح، أضواء على الإستشراق [ط١، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ١٩٨٠] ص١٠.

(٥) الحميدة، سالم محمد، الحروب الصليبية [ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٤] ج٤، ص٧.

(٦) بارت، رودي، الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، ص٩.

(٧) فوك يوهان، تاريخ حركة الإستشراق، ص٢٦.

(٨) المصدر نفسه، ص٩.

أسهمت في صدور قرار مجمع فيينا الكنسي[١] عام ١٣١٢م القاضي بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في اللغات العربية والعبرية والسريانية في كل من جامعات أوكسفورد وبولونيا وسلامانكا وباريس، وهو ما يعتبره بعض المؤرخين الغربيين تاريخياً لبدء الإستشراق الرسمي[٢].

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن الاهتمام بالإسلام ولغته العربية في هذه الفترة كان بدفاع العمل الديني التبشيري[٣]، وكانت "اللغة العربية آنذاك كاللغة العبرية، تؤخذ لدراسة نصوص دينية من الدين المسيحي"[٤]. ومع بداية القرن السادس عشر، تزامن تعاظم قوة الأتراك ونفوذهم في أوروبا والخطر الذي شكلته على الديانة المسيحية، مع رغبة البابوية في توحيد الكنائس الشرقية فيها. كل ذلك صب الاهتمام على الدراسات الشرقية[٥] والعربية منها بشكل خاص كونها لغة الحضارة الإسلامية، وصدرت أول قواعد لغة عربية في أوروبا على يد بطرس ذي القلعة في غرناطة عام (١٥٠٥) [٦]، وتلى ذلك صدور أول كتاب باللغة العربية وهو "صلاة الصاوي" الذي طبع عام (١٥١٤م) في البندقية[٧].

وأدى الإهتمام الأوروبي المتزايد بالتجارة والمخططات السياسية في الشرق وخاصة بريطانيا وفرنسا، إضافة إلى إستمرار الحاجة إلى مؤلفات العرب والمسلمين العلمية في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات وغيرها، إلى اتساع الاهتمام بالتعرف على الشرق، ليصبح اكاديمياً حيث تأسس أول كرسي للغة العربية في باريس عام (١٥٣٩م) وتحديداً في الكوليج دو فرانس الذي عهد به للأستاذ غليوم بوستل* (Guillaume Postel) (١٥١٠-١٥٨١م) الذي أسهم في تدريب تلاميذ من أمثال سكوالجر (J.Scoillger) (١٥٤٠-١٦٠٩م) وهو عالم موسوعي بالإستشراق.

---

(١) فوزي، فاروق عمر، الإستشراق والتاريخ الإسلامي [ط١، ياقوت، بيروت، ١٩٩٨٧] ص١٣١.

(٢) النجار، شكري، (لما الاهتمام بالشرق) المنشور في مجلة المفكر العربي، العدد٣، سنة ١٩٨٢، ص٦٣.

(٣) جواد، قيس خزعل، (تطور الصورة الغربية للشرق) المنشور في مجلة دراسات شرقية، باريس، العدد٢، السنة الأولى، ك٢، ١٩٨٢، ص٧٦.

(٤) فايشر، ب، الشرق في مرآة الغرب، [ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣] ص٦٣.

(٥) رودنسون، مكسيم، تراث الإسلام، ص٥٥-٦٢.

(٦) جبرا، يوسف، تاريخ دراسة اللغة العربية في أوروبا، [مطبعة الشباب، القاهرة، ١٩٢٦] ص١٤.

(٧) المصدر نفسه، ص١٥.

(*) هناك إيضاح عن حياته لاحقاً في الفصل الثاني من الرسالة.

وفي عام (١٥٨٦م)، تأسست مطابع الكاردينال فرديناند دو مدتيشي دوق تسكانيا التي أسهمت في طباعة أعمال ابن سينا الطبية والفلسفية بالإضافة إلى كتب القواعد والجغرافية والرياضيات.

وتكررت هذه العملية مع نهاية القرن السادس عشر في باريس وهولندا وألمانيا للحصول على معرفة أفضل للأعمال العلمية العربية[١].

وفي هذه المرحلة كان الخطر العثماني قد تراجع وبدأت الصلات السياسية والعلاقات التجارية تنمو بين دول أوروبا والعثمانيين.

تطورت حركة الإستشراق وبدأت تأخذ منحنى علمياً مع تزايد عدد كراسي الدراسات الشرقية في الجامعات الأوروبية وتأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس[٢](١٧٩٥م).

ومع ضعف الدولة العثمانية، ازدادت حدة الأطماع الأوروبية الاستعمارية في الشرق ومن أبرز مظاهرها حملة نابليون على مصر وبلاد الشام [٣] عام (١٧٩٨م)، والتي حملت معها أعداداً من العلماء الباحثين، في الوقت الذي بدأ فيه الغرب باستعمار العالم الإسلامي والإستيلاء على ممتلكاته، وهنا تجلى الإستشراق الحقيقي المنظم والذي تمثل بنبوغ بعض علماء الغرب من خلال إصدار عدد من المجلات[٤] وسرقة المخطوطات العربية[٥]، وبلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد، حيث رصدت الحكومات في هذه المرحلة الميزانيات الضخمة للمنظمات والهيئات التي تعمل من خلالها، وكان هناك تعاون وثيق بين كبار المستشرقين والمسؤولين في وزارات الخارجية والمستعمرات في الكثير من البلدان الغربية[٦].

وتميز استشراق القرن التاسع عشر بالنزعة الإستعلائية (نظرية الرجل الأبيض وحقوقه العنصرية) تجاه الأمم والحضارات الأخرى، أي ظهور النفس الإمبريالي، إلى جانب نزعة التعلق بالغرائب، باعتبار أن الشرق ينطوي على كل ما هو سحري، فضلاً عن التغير الشكلي في أسلوب مواجهة الإسلام، من العلني المباشر إلى الخفي المتستر بالعلمية والموضوعية.

---

(١) رودنسون، ماكسيم، جاذبية اللإسلام ترجمة الياس مرقص [دار التنوير، بيروت، ١٩٨٢] ص٤٣.

(٢) العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج١، ص١٥٣.

(٣) عليان، محمد عبدالفتاح، أضواء على الإستشراق، ص١٠.

(٤) الزيادي، محمد فتح الله، ظاهرة إنتشار الإسلام، ص٦٨.

(٥) جحا، ميشال، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، ص١٩.

(٦) الزيادي، ظاهرة إنتشار الإسلام، ص٦٩.

ازدهرت الحركة الإستشراقية منذ منتصف القرن التاسع عشر، فظهرت الجمعيات والمجلات الإستشراقية، وعقدت المؤتمرات الدورية للمستشرقين التي تعكس تجمعهم وتحشدهم وتوجههم المخطط والمنظم، وكان أول مؤتمر لهم في باريس عام (١٨٧٣م)، وتوالت بعده المؤتمرات كل ثلاث سنوات[١].

وتواكب الإستشراق مع الإستعمار للوطن العربي والعديد من مناطق الشرق، في الوقت الذي ظهرت فيه محاولات جادة باتجاه الموضوعية في الكتابات الإستشراقية، مثّلها سلفستر دي ساسي الفرنسي[٢] De Sacy، وانتهت هذه المرحلة بانتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث برز النفوذ السياسي والإقتصادي الأميركي في المنطقة والعالم. وظهرت على إثرها حركة إستشراقية أميركية تركزت على الجوانب السياسية والإقتصادية، ورسمت من خلالها صورة للإنسان العربي والمسلم لا تختلف عما رسمه المستشرقون الأوائل.

والجدير بالذكر ان معظم الدول الأوروبية أسست مراكز بحوث ومعاهد متخصصة بالدراسات الشرقية المتنوعة والمختلفة شملت جوانب الحياة التاريخية والدينية والجغرافية كافة والآثار والآداب والعلوم والفنون واللغات وكل ما يتصل بالشرق، وتوزعت هذه المراكز بين المدن الأوروبية المختلفة وكذلك في العديد من العواصم الشرقية.

دوافع الإستشراق وأهدافه

تقف وراء حركة الإستشراق دوافع عدة تطورت بمرور الزمن واستقطبت إهتمام الأوروبيين منذ عصر اليونان والرومان للتوجه بل الإندفاع نحو الشرق، فكان هذا التواصل والاحتكاك عبر التاريخ والذي تجسد بأشكال مختلفة في أزمنة السلم والحرب، وشكل الجسور الأساسية لانتقال الحضارات وإنجازاتها العلمية.

ومما لا شك فيه أن الرغبة في الحصول على العلم لأجل العلم كتمهيد للتقدم والتطور، شكلت الدافع الأول والأساسي وراء انتقال العديد من العلماء والطلاب[٣] الأوروبيين إلى مدارس الأندلس، وغيرها من مناطق التماس بين العرب والمسلمين

---

(١) السباعي، مصطفى، الإستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم [ط١، مكتبة دار البيان، ١٩٦٨] ص١٧.

(٢) الجشعمي، عصمت، (دور المستشرقون في تخريب الثقافة والفكر العربي)، المؤرخ العربي، العدد ٢، ص٥٩.

(٣) ذنون، عبدالواحد، (اثر الأندلس في الفكر الغربي)، بحث قدم في ندوة فكرية في بيت الحكمة، تموز ١٩٩٧، ص٧٨، انظر كذلك: محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة إنتشار الإسلام، ص٦٧، وكذلك: عبدالفتاح عليان، أضواء على الإستشراق، ص٤٤.

والأوروبيين، والتي أشعت منها علوم العرب المسلمين (صقلية، فلسطين)[1] إلا أن هذه التوجهات لم تبق الأساس وراء الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، حيث تنوعت وتعددت الدوافع تبعاً للظروف السياسية والإقتصادية والدينية والثقافة التي مرت بها أوروبا والغرب.

(١) علي، سعيد حسين، (دوافع وآثار حركة الإستشراق الهولندي في مضمار الجغرافية العربية) مجلة الفيصل، شركة الطباعة السعودية، العدد ١١٩، الرياض، ك٢، ١٩٨٧، ص٥٩.

أولاً: الدافع العلمي:

كانت البدايات الأولى للإستشراق فردية، تحكمت بها الرغبة في الحصول على ما لدى العرب من علوم في مجالات الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والفلسفة وغيره وليس أدل على ذلك من الترجمات الفردية الأولى من العربية إلى اللاتينية لأفراد من طالبي العلم من غربي اوروبا رغبة منهم في التعرف على علوم الأندلس، إذ كانوا يعودون إلى ديارهم بعد الإنتهاء من تعليمهم حاملين مخطوطات علمية باللغة العربية أو مترجمة إلى اللاتينية[١]، و عزز ذلك قيام بعض الحكومات الأوروبية بإرسال بعثات رسمية لتلقي العلم والفنون والصناعات في مدن الأندلس الكبرى[٢]، وقد اعتنق بعض من أعضائها الإسلام واختار البقاء في الأندلس، كذلك زواج فتيات منها من مشاهير رجال الأندلس[٣].

نشطت عمليات الترجمة لما احتوته المكتبات العربية آنذاك بقوة في القرن الحادي عشر، يأتي في مقدمة مشاهير المترجمين الشماس دومينيكو غونديسالفي Domenico Gundisallvi (١١٣٠-١١٧٠م)، والبريطاني أدلارد الباثي Adelard of Bath (١١١٦-١١٤٢م) والإيطالي جيرار الكرموني Geraro de Cremona (١١١٤-١١٨٧م). وتركزت الترجمة على الكتب العربية التي تتضمن علوم اليونان أولاً ثم امتدت لتشمل مختلف الكتب العربية في الحساب والفلك والتنجيم والطب والفلسفة ولمؤلفين مسلمين أمثال الخوارزمي والفرغاني والفارابي وابن سينا والغزالي. واستمرت السيادة للعلوم العربية المنقولة في فرنسا وأوروبا حتى القرن الخامس عشر الميلادي[٤]، ويذكر العديد من المستشرقين[٥] اثر الحضارة العربية على نهضة وتقدم أوروبا، وهذا ما يعزز الرأي القائل بأن جانباً أساسياً من الإستشراق اتجه إلى نقل العلوم العربية الإسلامية وفلسفتها.

ويقول غوستاف لوبون: "وظلت ترجمات كتب العرب، لاسيما الكتب العلمية، مصدراً وحيداً تقريباً للتدريس في جامعات أوروبا، خمسة قرون أو ستة قرون،

---

(١) ذنون، عبدالواحد، (اثر الأندلس في الفكر الغربي) ص٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٤) لوبون، غوستاف، حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر [مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٩] ص٥٦٨.

(٥) انظر: غوستاف لوبون، حضارة العرب. وانظر كذلك: زيغريد هونكة، شمس العرب تسطح على الغرب [ترجمة فاروق بيضون، ط٣، المكتب التجاري للطباعة بيروت، ١٩٧٩] ص٣٠٩. وكذلك: لويس، برنارد، تاريخ إهتمام الإنكليز بالعلوم العربية [ط٢، المجتمع العربي] ص٦.

ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم، كعلم الطب مثلاً، استمر إلى أيامنا، فقد جرى شرح كتب ابن سينا في مونبلييه في أواخر القرن الماضي"[١].

والجدير بالذكر ان حاجة الأوروبيين للعلوم لدى العرب دفعت بعضهم، وفي زمن مبكر، لتعلم اللغة العربية وإجادتها، ليكون باستطاعتهم ترجمة المخطوطات العربية، وعليه أصاب هذا النوع من العلم تطوراً صاعداً ضمن إطار حركة الإستشراق الذي نظم في مرحلة لاحقة من خلال إنشاء المدارس الخاصة باللغات وكراسي اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى في الجامعات الأوروبية، كما سبق ذكره. ومما يذكر في هذا المجال ان أول مستعرب اوروبي تعلم اللغة العربية وسافر من أجلها إلى الشرق كان البريطاني ادلارد الباثي[٢].

وعلى الرغم من مظاهر الجهل والتخلف والأمية التي كانت تعيشها أوروبا في القرون الوسطى، إلا أن متطلبات الحضارة والتقدم كانت أقوى من تلك العوامل التي أسست لها الكنيسة[٣].

فقد عمل مفكرو أوروبا وعلماؤها بجد في البحث عن المخطوطات العلمية العربية ومتابعتها في شتى البلدان العربية، ولهذا السبب ظهرت أهمية الرحلة إلى البلدان العربية طلباً للعلم[٤].

ثانياً: الدافع الديني:

يقول ليوبولد فايس•: "إن كره الأوروبيين نحو الإسلام كره عميق الجذور، يقوم في الغالب على التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، لكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية. وقد لا تتقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوسية لكنها تحتفظ دائماً في ما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن، أو مبني على التفكير عندما تتجه إلى الإسلام، يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب، حتى أن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في

---

(١) حضارة العرب، ص٥٦٩.

(٢) ناجي، عبدالجبار، أثر الحضارة العربية الإسلامية في الفكر الغربي، بيت الحكمة، بغداد، تموز ١٩٩٧، ص٢٥.

(٣) هونكة، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٣٠٨.

(٤) ناجي، عبدالجبار، أثر الحضارة العربية الإسلامية في الفكر الغربي، ص٣١.

• ليوبولد فايس أو (محمد أسد) صحافي من النمسا، ترك بلاده عام ١٩٢٢ ليتجول في أفريقيا وآسيا كمراسل لبعض الصحف، تجول في العديد من الأقطار الإسلامية، واحتك بأوساط المسلمين بشكل مباشر مدة لا بأس بها أدت به في النهاية إلى أن يشهر إسلامه وذلك في سنة ١٩٢٦. وأتخذ لنفسه اسم (محمد أسد). أنظر: أسد، محمد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ [ط٩، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧] ص١٢.

كتاباتهم عن الإسلام، ويظهر في جميع بحوثهم كما لو أنه لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته"[١].

لقد كان لانتقال العلوم العربية والفلسفية وترجمتها في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا أثره الواضح في تنوير العقل الأوروبي، كما سبق وأوضحنا في الدافع العلمي، وذلك لمواجهة مختلف التحديات التي كانت تعيشها أوروبا والتي ساهمت الكنيسة وقساوستها إطباقها على الفكر والحؤول دون منافذ التقدم العلمي والحضاري، حيث بدأت تظهر هذه الآثار على شكل حركات تمرد ضد سلطة البابا في روما في القرن السادس عشر الميلادي[٢]، فضلاً عن ذلك الإقبال المنقطع النظير على تعلم اللغة العربية والبحث والكشف عن المخطوطات العلمية العربية من قبل الشباب النصارى، ومخالطتهم للمسلمين في مختلف شؤون حياتهم منذ مطلع القرن التاسع الميلادي[٣] والتي فتحت عيونهم على الفوارق الجوهرية بين سلوك رجال الدين المسيحيين وفي مقدمتهم باباوات روما وبين ما جاء به الإسلام[٤]. وهذا ما حدا بأحد الأساقفة الذي سبقت الإشارة إليه ليعبر عن تذمره وينتقد ظاهرة ابتعاد الشباب المسيحي عن لغته ودينه وإنكبابه على لغة العرب وعلومهم، فضلاً عن انتشار الإسلام في العديد من المناطق على حساب المسيحية بعد أن طرد الروم من أرض العرب.

كل هذه العوامل شكلت الأساس للدافع الديني الذي هيمن على جانب أساسي من علاقة أوروبا والغرب بالعرب المسلمين[٥].

يعتبر رودي بارت أن بداية الإستشراق هو تاريخ أول ترجمة للقرآن عام (١١٤٣م) ويرى أن الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر وفي القرون التالية هو التبشير لإقناع المسلمين بلغتهم بترك الإسلام والإلتحاق بالدين المسيحي[٦]. ولذلك أنشئت كراسي الأستاذية لتعليم العربية وغيرها من اللغات الشرقية في العديد من الجامعات الأوروبية سنة (١٣١٢م) كما انتشرت المدارس التي تنتج المبشرين كما

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٣.

(٢) السامرائي، قاسم، الإستشراق بين الموضوعية والإفتعالية، ص٢٦.

(٣) الأوسي، حكمت علي، من أعلام الإستشراق الأسباني، ص١٢١.

(٤) عليان، محمد عبدالفتاح، أضواء على الإستشراق، ص٤٣. أنظر كذلك: الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص٦٤.

(٥) بارت، رودي، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص١٠.

(٦) المصدر نفسه، ص٩.

أسلفنا، خاصة وأن المسيحية تبشيرية في أصل جوهرها[١] تستند إلى فكرة الحوارية والرسالية أي المرسلين المسيحيين مثل بطرس في روما ويعقوب في أسبانيا، كما تستند إلى فكرة أنه من أدخل غير مسيحي إلى الديانة المسيحية دخل الجنة[٢].

كما أن لحقبة الحروب الصليبية دوراً مهماً في تأجيج التوجه الإستشراقي الديني. وفي الوقت الذي تركز فيه اهتمام وجهود المبشرين والرهبان للطعن بالإسلام رسالة ونبياً وكتاباً وشريعة[٣]، ثمة موقف سلبي من الدين والتديّن بشكل عام عبّر عن نفسه بصيغة موقف عدائي من الإسلام ونبيه من قبل بعض الكتاب والمستشرقين الأوروبيين.

ثالثاً: الدافع الإستعماري

الإستعمار هو التسلط والهيمنة من طرف على طرف آخر إلى حد استلاب إرادته وشخصيته وتسييره وفق رؤى الطرف المستعمر. وعلى مستوى الأمم والشعوب هو تحكم شعب بشعب آخر[٤]. وهو نتيجة إختلاف موازين القوى بين الشعوب، ما يعطي الحق للقوي على الضعيف إذا ما كان هذا القوي يفتقر للمبادئ الإنسانية وقيم الفضيلة والخير.

يقترن هذا التسلط بالظلم والإستغلال والطغيان والقسوة، وخير من يعبر عن هذه الفكرة تاريخياً الإمبراطورية الرومانية التي قامت على مبادئ الاجتياح بالقوة واستغلال الأقوام الأخرى، ومنهم العرب، لفائدة الوطن الأم وحده (روما) في سبيل الترفيه عن فئة "ممتازة". لم ير الرومان في عنفهم سوءاً ولا في ظلمهم إنحطاطاً و"العدل الروماني" الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم[٥].

وفي مثل هذه التربة نشأت المدنية الغربية الحديثة، وهكذا هو موقف الدول المستعمرة كافة، حيث تستغل ثروات البلاد التي تحكمها وتستغل جهود أهلها في سبيل الترفيه عن شعبها فقط، في حين أن الدولة العربية - الإسلامية التي انتشرت في زمن قياسي على بقاع مترامية الأطراف استندت بقوتها إلى نشر فكرة (رسالة) اعتبرها العرب بمثابة الحقيقة الدينية السامية[٦].

---

(١) الكعاك، عثمان (التبشير والتخطيط التبشيري) مجلة الفكر الإسلامي، العدد ٢، السنة الخامسة، بيروت، شباط ١٩٧٢، ص٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٣) السباعي، مصطفى، الإستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص١٨. انظر كذلك: عليان، عبدالفتاح، أضواء على الإستشراق، ص٤٣.

(٤) الخربوطلي، علي حسن، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص٧٠.

(٥) أسد، محمد، الإسلام على مفترق الطرق، ص٣٨

(٦) المصدر نفسه، ص٧٩.

وهذا ما يفسر إنسحاق الروم أمام العرب المسلمين رغم الفارق الجوهري في العدد والعدة بين الطرفين. فعلى أساس هذا الفهم، مورس الإستعمار تجاه البلاد العربية والإسلامية من قبل الغرب. هذا الاستعمار الذي مهدت له عمليات الغزو الثقافي المتواصلة عبر قرون وصولاً لاستلاب الفكر العربي الإسلامي[١]. وكان للإستشراق دور بارز في تمكين القوى الأوروبية الإستعمارية من إحكام قبضتها على الوطن العربي والعديد من الدول الإسلامية والشرقية، فقد قدم العديد من المستشرقين خدماتهم بشكل مباشر لحكوماتهم عبر تكليفهم بمهام إستطلاعية ودراسات حول البلاد التي يستهدفونها. والمعروف أيضاً أن هناك أسماء لامعة في سماء حركة الإستشراق كانت موظفة بشكل مباشر في وزارات المستعمرات للحكومات الأوروبية في إنكلترا وفرنسا وغيرها[٢]. وفي هذا المجال استهدف الإستشراق القضاء على اللغة العربية بوصفها لغة القرآن[٣]، وضرب إرادة المقاومة لدى العرب المسلمين من خلال التشكيك بصحة عقيدتهم[٤] لإرغامهم على قبول نفوذ الغربيين والرضا بولايتهم والخضوع لتوجهاتهم.

وتجدر الإشارة إلى الترابط والتوازي بين الدافعين الديني والإستعماري، ولا شك في أن الحروب الصليبية، وقبلها ما سمي بحروب الإسترداد (في إسبانيا) مثلت بداية اللقاء بينهما والتي ما إن فشلت في تحقيق أهدافها (الحروب الصليبية) حتى تحول كلا الدافعين الديني والإستعماري إلى سلوك طريقي الإستشراق والتبشير (ولا غرابة في أن يكون أغلب المستشرقين الأوائل من رجال الدين) في محاولة لضرب العرب والمسلمين من خلال دراسة لغاتهم وتاريخهم وآدابهم وحضارتهم ودينهم وفهمها[٥].

الخلاصة

ثمة آراء مختلفة حول الإستشراق بخصوص كونه علماً أم ظاهرة أم ممارسة فكرية من الغرب تجاه الشرق.

فالقائلون به علماً يستندون في حجتهم إلى أن المستشرقين يستخدمون وسائل ومناهج البحث العلمي في دراساتهم وبحوثهم وكذلك الأمر بالنسبة لدارسي نتاجات

---

(١) عربي، محمد ياسي، الإستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي [ط١، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط١٩٩١] ص١٤٣.

(٢) الساموك، العاني، مناهج المستشرقين، ص٢٢.

(٣) الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام، ص٨٢.

(٤) الجشعمي، دور المستشرقين في تخريب الثقافة والفكر العربي، ص٦٠.

(٥) جحا، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، ص٣٠.

الإستشراق والمستشرقين، ويعتبرون بأن هذه المنهجية بالتأكيد بعيدة كل البعد عن ميولهم وأذواقهم الخاصة.

ومما يقلل من دقة هذا الرأي وصحته بالرغم من صوابية التحليل أن العملية الإستشراقية لا تنطوي على اكتشاف أو استخلاص قوانين علمية كما لا تحكمها قواعد وقوانين خاصة بها. وعليه أعتقد أنه لا يكفي فقط إستخدام المنهج العلمي في دراسة نتاجات الشرق أو في دراسة نتاجات المستشرقين ليكون الإستشراق علماً قائماً بحد ذاته.

وثمة فئة ترى في الإستشراق ظاهرة[1] ثقافية فرضتها ظروف معينة دينية واقتصادية وسياسية لدى كل من الغرب والشرق، مؤكدةً أن الإستشراق انتهى بانتفاء حاجته، وبما أنه لا يتسم بصفة الثبات والإستمرار فهو ظاهرة مرت بمراحل متعددة درست موضوعات مختلفة خلالها.

وإذا سلمنا بعدم الثبات والإستمرارية سمة مميزة لأي ظاهرة، فإن الإستشراق لم ينته ولن ينتهي، لأن الدوافع الحقيقية الأساسية وراءه كانت وما زالت قائمة حتى يومنا هذا.

فالأطماع الغربية، لما ينطوي عليه الشرق من ثروات من جهة أخرى، قائمة حتى الآن. وعليه قد تتغير العناوين والوسائل تبعاً للظروف التي تمر بها علاقة الشرق بالغرب، إلا أنه سيبقى هناك دراسات ودارسون لنتاجات الشرق الثقافية، ولأحواله وأوضاعه المختلفة من قبل الغربيين.

وهناك من اعتبر الإستشراق مجرد أسلوب بحث فكري للغربيين تجاه الشرق لتحقيق مطامعهم[2] أو عملية إسقاط للغرب بمكنوناته وإرهاصاته على الشرق.

وعلى الرغم من أهمية النظر إلى النتائج لما تسهم به في تحديد سمة الإستشراق التي استند عليها هذا الرأي، فإنه لا يكفي لنحكم عليه من خلال نتائجه مع التسليم بأهمية ذلك كما أسلفنا، بمعنى أن النتائج السلبية ليست دائماً مقصودة بتخطيط مسبق، وإنما قد تكون نتيجة لقصور في أدوات التحليل والمنهج.

ولا بد من الإشارة إلى حقيقة تاريخية وإنسانية في الوقت ذاته، مفادها أن المجموعات البشرية والأقوام تشترك في سمة التواصل الإنساني في ما بينها، والذي يتخذ أشكالاً مختلفة، إيجابية وسلبية، تبعاً للعديد من الظروف المحيطة بالمجتمعات البشرية، طبيعية كانت أم سياسية، إقتصادية، دينية، ثقافية... الخ.

ومما هو مسلم به أن ما وصلت إليه البشرية لم يكن من فعل أمة واحدة أو شعب واحد أو مجتمع واحد، بل هو نتاج الجهد المشترك للبشرية عبر تعاقب مراحل

---

(١) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج١.

(٢) سعيد، أدوارد، الإستشراق، المعرفة، السطلة، الإنشاء، ص٣٨.

تطورها من جهة، وهي مدينة من جهة أخرى للتفاعل الإنساني بين الأمم والشعوب، من خلال انتقال النتاجات الحضارية والثقافية من مجتمع إلى الآخر فضلاً لما كان للرسالات السماوية والأنبياء من دور رئيس في هداية البشرية على ما يصلح حالها.

وبالتالي يعتبر الإستشراق توجهاً أجنبياً تجاه الشرق عبّر عن نفسه بخصائص مميزة من خلال دوافع وأهداف مختلفة في كل مرحلة من مراحل تطوره.